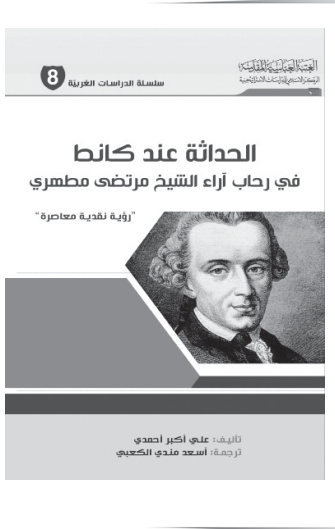


الحدائثة عند كانط في آراء الشيخ مرتضى مطهري

نقد إسلامي للنظام الفلسفي الكانطي

خضر إبراهيم



يعد كتاب "الحدائثة عند كانط في رحاب آراء الشيخ مرتضى مطهري، من بين الكتب والمؤلفات التي تسلط الضوء على المنهجية الانتقادية التي عرفها الفكر الإسلامي المعاصر تجاه الحدائثة الغربية.

موضوع الكتاب والشخصية المحورية فيه هما ماثار الاهتمام الخاص على هذا الصعيد. فالعلامة الشيخ مرتضى مطهري هو من أبرز الفلاسفة والمفكرين المسلمين المعاصرين الذين استوعبوا فكر الحدائثة وفلسفتها، وبنوا على هذا الاستيعاب نقداً عميقاً معززاً بالأدلة والحجج العلمية.

وهذا الكتاب الذي صدر حديثاً عن المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية التابع للعتبة العباسية المقدسة في

العراق. يندرج ضمن سلسلة الدراسات التي تهدف الى معرفة الغرب في ثقافته الفلسفية والدينية ونقده انطلاقاً من الرؤية الإسلامية الأصيلة. ولا شك أن تناول آراء مفكر إسلامي كبير كالشيخ مطهري ومعارفه له أثر فكري وثقافي عميق في الأزمنة الراهنة، إذ يعيش العالم اليوم مأزق شتى على الصعيد المعرفية والأخلاقية وأنظمة القيم.. ولعل الأهمية التي يدل عليها هذا الكتاب هي في تناول شخصية الفيلسوف الألماني الكبير إيمانويل كانط بوصفه أحد أبرز الفلاسفة الغربيين الذين أسسوا للحضارة الحديثة. وعليه يمكن عدّ الكتاب بمنزلة مناظرة فريدة بين فيلسوفين دارت حول أعقد القضايا التي واجهتها الفلسفة ولا سيما منها قضية الإيمان والعقل.

بين كانط والأشاعرة

من المسائل الأساسية التي ارتكز عليها المؤلف ودارت حول آراء الشيخ مطهري في حداثة كانط أن أطروحات الفيلسوف الألماني في قضايا الوجود ليست جديدةً من نوعها، ولا يمكن ادعاء أنها إبداعٌ فكريٌّ في العصر الحديث، إذ إنها قُدمت قبل ذلك من قبل الأشاعرة، وغاية ما في الأمر انه يمكن اعتبارها مدلولات جديدة للفكر الأشعري. والجدير بالذكر هنا أن الشيخ مطهري وكما يذكر المؤلف، لا يرى الفكر الأشعري حكراً على أتباع بعض التيارات الفكرية الإسلامية القديمة كالخوارج وأهل الحديث والحنابلة والأخباريين ومن حذا حذوهم آنذاك، فقد عدّه جليلاً أيضاً في بعض التيارات الفكرية الحديثة التي أبصرت النور في عصر النهضة العلمية والتجدد الفكري؛ وعلى هذا الأساس عدّد آراء عدد من الفلاسفة المحدثين التي تتسم بالطابع الأشعري. فأراء كانط من وجهة نظره تعدّ صورةً حديثةً للفكر الأشعري؛ ولا ريب في أن الأشعرية الحديثة من حيث الأصول والمبادئ لا تختلف عن تلك التي شاعت في العصور الإسلامية السالفة، والتي ما زالت بعض تبعاتها باقية حتى عصرنا الراهن.

هذه اللفتة المبتكرة في التفكير المقارن بين الكانطية والأشعرية هي من دون شك إحدى المزايا الأساسية التي يتميز بها التفكير الإبداعي للشيخ مطهري. وهذا ما نلاحظه في معرض مطالعاتنا أفكاره وآراءه حيال كانط وسواه من فلاسفة الغرب.

وحسب ما يرى الشيخ مطهري أن إله الأشاعرة في الواقع على غرار العقل العملي الذي تبناه إيمانويل كانط، فهو عاجزٌ ومكبّل اليدين وكأنّه أصمٌّ وأعمى، فلا قيمة عنده للخير والحسن والكمال والسعادة؛ ولكنّه مع ذلك يدعو إلى تحرّر الإنسان وإنقاذه مما هو فيه من أوضاع مزرية! فالإنسان الذي يمنح الأفضلية لنفسه ولا يعدد الله تعالى مدبراً حكيماً للكون ولا يؤمن به ربّاً له ولا يقرّ بأنّه الخير الأسمى والحسن التام، وفي الحين ذاته لا يسعى إلى تحقيق أدنى ارتباط به؛ كيف يمكنه أن ينجو من براثن الآلهة المزيفة والنزوات النفسية الجامحة التي تقيده بأغلال العبودية الباطلة.

على هذا الأساس ليست حداثة إيمانويل كانط كما يقرر الشيخ مطهري سوى نظرية يستحيل تحقيقها، لذا دعا إلى القيام بنهضة تنويرية - مسيحية أو إسلامية - تكون مقدّمةً لعصرٍ متقومٍ على مبادئ النقد العقلي بحيث تمنح الإنسان قدرةً تنقّذه مما هو فيه من أوضاع مزرية وتخلّصه من القيود التي كبله بها تاريخه المظلم، وهذا النقد يجب أن يكون أولاً وقبل كل شيءٍ معياراً لتقييم قابلية العقل على إنجاز مهامّه الموكلة إليه؛ ولكنّ هذا لا يعني أنّ النقد العقلي يقطع الطريق على العلم الديني العقلي وفي الحين ذاته لا يفتح الباب على مصراعيه لاستقلال الذات الإنسانية أخلاقياً، بل الأمر خلاف ذلك تماماً، فهو سبيلٌ لإيجاد تصوّر حقيقيٍّ وصائبٍ عن الله تبارك شأنه بوصفه إلهاً يحبّ الخير والصلاح لبني آدم ويتعامل معهم برحمةٍ ورأفةٍ؛ نعم، إنّه وازعٌ لتحقيق علمٍ دينيٍّ ينقذ الإنسان من واقعه المرير ويسوقه نحو الكمال والسعادة، وهذا

هو المعنى الحقيقي لعصر النقد... طبعاً هذا ما ذهب إليه الفيلسوف المسلم مرتضى مطهري.

الدور الكانطي في إشكالات التنوير

الواقع أن التحولات الفكرية والاجتماعية التي شهدتها المجتمعات البشرية منذ القرن الخامس عشر حتى السابع عشر الميلاديين إثر انطلاق عصر النهضة، قد أثمرت برمتها عن ظهور نهضة في القرن الثامن عشر عُرفت بحركة التنوير الفكري التي يمكن اعتبارها الخطوة الأولى في نشأة العصر الحديث.

والواقع أن حركة التنوير الفكري التي أسهم كانط إسهاماً كبيراً في إطلاقها، ارتكزت على النتائج التي تمخّضت عن القضايا المذكورة في أعلاه إذ أصبحت أساساً أيديولوجياً لها ومصدراً تستلهم منه شتى الشعارات التي رفعتها ودعت إلى تحقيقها، وقد دعت إلى احترام المبادئ التالية: مركزية الإنسان، الإيمان بقدرة العقل، نبذ الخرافات، الاستحواذ على خيرات الطبيعة، امتلاك القرار لتعيين المصير سياسياً واجتماعياً، وحدة الطبيعة البشرية، الإيمان بفاعلية العقل الجماعي، سيادة القانون، تدوين قوانين وضعية، الفصل بين السلطات الحاكمة، الاتكاء على النظام الانتخابي والبرلماني في الحكم، إقرار الملكية الفردية، العمل على تحقيق الرفاه المعيشي، تنفيذ برامج تنموية، مواكبة التطور الحضاري، التساهل والتسامح مع الآخرين.

بعض المفكرين واجهوا ضغوطاً ومضايقات جمّة، لكنهم صمدوا ولم يستسلموا وبذلوا كل ما في وسعهم لإثبات صواب نظرياتهم وآرائهم، والسبب في صبرهم وتحملهم المشاق أنّهم امتلكوا رؤيةً مستقبليةً منبثقةً من دقةٍ ووعيٍ منقطع النظير، وفي الحين ذاته امتلكوا شجاعةً أهلتهم لانتقاد واقع الأوضاع التي عاصروها؛ لذلك قدموا نظريات واقتروا مشاريع فكرية جديدة لتحرير الإنسان الغربي وإنقاذه من قيوده التي كبّلتها بها السلطات السياسية والدينية، لذلك تألقت أسماءهم في عالم الفكر والمعرفة، لكن بطبيعة الحال لا يمكننا هنا ذكر أسمائهم جميعاً، ولكن نكتفي بالإشارة إلى أشهرهم فيما يلي: فولتير، ديدرو، دالامبير، هولباخ، تورجو، دي كوندراست، مونتسكيو، هيوم، روسو، ليسينغ، كانط، مندلسون، هردر، لامتري، دي كوندياك، جيريمي، بنثام، جيفرسون، آدامز، هاملتون، لوثر، كالفين، أراسموس، مكيافيللي، مونتي، برونو، كوبرنيكوس، تيخوبراهه، جاليليه، كوبر، بويل، نيوتن، ديكارت، سبينوزا، لاينتز، مالبرانش، وولف، باسكال، بيكون، هوبز، جون لوك، بيركلي، بيير بايل.

العصر الحديث بشتى وقائعه أمسى هاجساً يراود أذهان الفلاسفة وعلماء الاجتماع والمؤرخين منذ باكورته، ومن هذا المنطلق أثرت مجموعة من التساؤلات حول طبيعته وأصوله ومقتضياته وواقع ارتباطه بالعصور السالفة ومكانته في التاريخ البشري، كما أثرت مباحث ودارت نقاشات حول ما إن كان حركةً عفويةً أو أنه شهد الوجود بتدبيرٍ مدبّرٍ؛ هذا إلى جانب الخوض في تفاصيل شتى صورته

وميزاته التي اختصّ بها، وما سوى ذلك من قضايا أخرى لا يسعنا المجال لذكرها هنا؛ وهذه الأمور تطرّق إليها فلاسفة البلدان الشرقية والغربية بشكلٍ أخصّ.

نقد شكوكية كانط

يدحض الشيخ مطهري نظرية كانط حول عدم القدرة في إدراك الشيء في ذاته فيرى من ينفي مصداقية الوجود الخارجي للأشياء ويدعي أن الذهن هو الذي يحبك صورها فتتكشف له بهذه الصورة، فهو يندرج في ضمن القائلين بالشكوكية، لذا نجد أصحاب النزعة المادية يعدّون كانط واحداً من الفلاسفة المشككين معلّين ذلك بأنه يفرق بين (الشيء في نفسه) و(الشيء بالنسبة إلينا)، إذ كان يعتقد بأن الذهن يمتلك بعض المعاني المسبقة - من قبيل الزمان والمكان - بوساطة الفطرة، لذا فهي غير موجودة في الخارج؛ وقال إن كل ما يدركه الانسان لا بد من أن يكون مؤطراً بإطار تلك المعاني، واستنتج من ذلك وجود اختلاف بين الشيء في نفسه والشيء بالنسبة إلينا.

لم يكن كانط راضياً عن وصفه بالسوفسطائي أو الشكوكي عاداً نفسه ناقداً للعقل البشري، وقال إنه ساق أدلة جديدة في علم الطبيعيات دحضاً للشكوكية؛ إلا أن منهجه النقدي في الحقيقة يمكن عدّه نمطاً جديداً من أنماط السفسطة التي لها صور متعددة.

والجدير بالذكر هنا أن الماديين أنفسهم يفرقون بين الشيء في نفسه والشيء بالنسبة إلينا، وما يميزهم من كانط هو أنه لم يقل باختلاف الشيء لدى كل فرد على حدة بالنسبة إلينا بوصفنا أفراداً، لكن الماديين قالوا بذلك. والمرحوم فروغي نقل عن كانط قوله: "الإنسان يشاهد الكون من وراء منظار معين، وهو لا يستطيع أن يبعد هذا المنظار عن عينيه".

لقد ذكرنا أن كانط لا يرضى أن تنسب إليه السفسطة والشكوكية، في حين الفرضية التي قدمها تجعله واحداً من الشكوكيين على أقل تقدير، ناهيك عن أنها ليست تقديماً جديداً لأن السوفسطائي الشهير بروتاغوراس قد أثارها في القرن الخامس قبل الميلاد، قال: "الإنسان معيارٌ لكل شيء".

ومن جملة ما قاله كانط بالنسبة إلى العلة والمعلول: "علاقة العلة والمعلول قد صنعها العقل، وليس من المؤكد أن يكون ترتب المعلول على العلة واجباً في عالم الواقع". لذا أكد على كون الأمور التي ندركها من مقتضيات أذهاننا، وعلى هذا الأساس لا يمكن البت بأنها هكذا حقاً على أرض الواقع.

لقد شكك هذا الفيلسوف بقانون العلية في العالم الخارجي، في حين أن الفلاسفة القدماء صرحوا بوجود هذا القانون وأكدوه لدرجة أنهم عدوا من ينكره أو شكك به وكأنه ينفي الفلسفة وجميع العلوم من أساسها ومن ثم فهو في زمرة السوفسطائيين".

النقد الحضاري للغرب

لا ريب في أهمية دراسة أصول الحداثة الكانطية وتحليلها بوصفها ذات تأثير مشهود في شتى التيارات الفكرية والمواقف الاجتماعية في القرنين التاسع عشر والعشرين، ومن هذا المنطلق فصل المؤلف وعبر آراء الشيخ مطهري بالعرض والنقد وذلك اعتماداً على الأصول الفلسفية والدينية. ذلك بأن هاجسه الأساسي يكمن في بيان واقع الصلة بين الإسلام والعالم المعاصر، وفي هذا السياق نجد في أحد مؤلفاته كلاماً في هذا الصعيد فحواه أن أهم مسألة تواجهها الأديان في العصر الحديث ولا سيما الإسلام، تكمن في كيفية إقرار تعاليم دينية منسجمة ذات طابع ثابت يتناسب مع ظروف العصر الحديث وقافلة الثقافة المعاصرة. وعلى هذا الأساس سخر هذا العالم المسلم جل جهوده للتعرف إلى معالم الفكر المعاصر وطبيعته التي امتاز بها من غيره، ولا سيما الأصول الفلسفية التي ارتكز عليها، لذلك أجرى دراسات استقرائية حول شتى آراء أبرز الفلاسفة الغربيين المحدثين وتناول نظرياتهم بالنقد والتحليل، وعلى رأسهم الفيلسوف الشهير إيمانويل كانط.

إن أردنا التعرف إلى آراء الفيلسوف كانط التي قدمها حول الأصول الفكرية للعصر الحديث وحاولنا تقييمها على وفق تعاليمنا الإسلامية السمحاء، فمن الضروري لنا استطلاع دالاتها ونتائجها على ضوء أفكار واحد من أبرز المفكرين المسلمين المعاصرين وهو الشيخ مرتضى مطهري.

من المؤكد أن كل تحليل وتفسير فحواه بيان المعاني الدلالية للمفاهيم التي يدور حولها الموضوع، لذا لا بد هنا لمن يتصدى لهذه المهمة الحساسة أن يمتلك استقلالاً فكرياً وعليه أن يثير مفاهيم جديدة تعكس واقع متبنياته الفكرية؛ الشيخ مرتضى مطهري خير مثال على هذا الأمر، إذ تم تسليط الضوء على شرحه وتحليله آراء إيمانويل وتقييمه لها.

بالطبع ليس الهدف من تدوين هذا الكتاب الاكتفاء بشرح الأصول الفلسفية وتحليلها للشيخ مرتضى مطهري وإيمانويل كانط، وإنما أساساً تبين الوجه الحقيقي للحداثة في إطار متبنيات كانط الفكرية على ضوء شرحها وتحليلها من قبل هذا المفكر المسلم. ومثل هكذا عمل يدخل من دون أدنى شك في سياق السجال النقدي البناء مع الغرب بغية إرساء أسس النهضة الإسلامية الجديدة.

يلاحظ المؤلف أن فلسفة كانط النقدية برأي الشيخ مطهري، مركزة على أساس البحث عن الحقائق الماورائية على ضوء دراسة قدرة العقل وتحليلها في فهم مختلف المسائل العقائدية والإجابة عن الاستفسارات المثارة حولها؛ لذلك لم يعدها تقديماً جديداً ومبتكراً على الساحة الفكرية، فهي تضرب بجذورها في تأريخ المسلمين منذ صدر الإسلام وبقيت موضوعاً على طاولة البحث العلمي حتى يومنا هذا، فهناك كثير من الجدل والنقاش حولها مما أدى إلى تبني أفكار متنوعة بشأنها من قبل الفلاسفة وغيرهم على مر العصور، فأهل الحديث - الحنابلة

والأشاعرة إلى جانب العرفاء - قد وقفوا في صف واحد في مقابل المعتزلة والفلاسفة المسلمين. فضلاً عما ذكر فقد أكد أن النقد العقلي موجود في التأريخ الفكري القديم للمسلمين معتبراً هذا الأمر لا يقلل من أهميته، إذ أشار في مختلف آثاره إلى عدم قدرتنا على امتلاك فلسفة ما لم نمتلك معرفةً بطبيعة الذهن، وهذا الرأي يدل بوضوح على أنه واكب إيمانويل كانط في القول بضرورة النهضة الفكرية بمحورية العقل، كما سار على نهجه في الفلسفة النقدية؛ لذا يمكن القول إن نهجه الفكري لا يختلف عن نهج هذا الفيلسوف الغربي إلا في مجال تأكيده قدرة العقل في دراسة القضايا الميتافيزيقية وتحليلها، إذ قال إنه على أقل تقدير يمتلك القابلية للخوض في تفاصيل بعض القضايا الدينية في ضمن مستوى معين.

دحض المنظومة الكانطية

يتطرق الكاتب في الفصل العاشر من كتابه إلى قضية حساسة في مجال النقد المعرفي لكانط إذ إن نظرية الأخير برأي الشيخ مطهري - كما يورد المؤلف - غير مؤهلة لأن تضع حلاً لمسألة المعرفة، فهي تفصل بين عالمي الذهن والخارج، وفي نهاية المطاف تؤدي إلى حدوث نزعة شكوكية بنمط جديد، بل قد تتسبب أحياناً بحدوث سفسطة عبر إنكارها الحقائق الخارجية.

وتجدر الإشارة إلى أن السبب في ترتب هكذا آثار في نظرية كانط يعود إلى عدم قدرته على تقديم تحليل صائب للمقولات الذهنية الاثنتي عشرة - الصورة السابقة للحس - إذ لم يدرك حقيقة الاختلاف بين المعقولات الأولى والثانية، كما لم يميز بين المعقولات الفلسفية والمنطقية الثانية.

إضافةً إلى ذلك فإن الشيخ مطهري لم يتفق مع كانط في تفسيره المعرفة الميتافيزيقية وعده باطلاً لا أساس له من الصحة، إذ قال إن مبادئ الفكر الماورائي ومفاهيمه مثل مفهوم الله تعالى، هي مبادئ ومفاهيم غير عينية، كما أنها لا يمكن أن تتقيد بنطاق التحليل الفكري الضيق.

ثمة مجموعة من الملاحظات الأساسية التي يمكن استنتاجها مما ذهب إليه الشيخ مطهري نقد النهج الفلسفي الكانطي. وهي ملاحظات تتعلق جوهرياً بالجانب الإحيائي في فكر هذا الفيلسوف المسلم ويمكن تلخيصها كما وردت في الكتاب على الشكل التالي:

(1) ضرورة السير في ركب نهضة تنويرية عقلية، وإعادة النظر في فهمنا للدين على ضوء الأحكام العقلية.

(2) ضرورة تبني فلسفة نقدية إلى جانب تحديد مدى قابلية القوة الإدراكية لدى الإنسان، وهذا الأمر بطبيعة الحال لا يعدّ جديداً على الساحة الفكرية، فهو موجود في الأوساط الفكرية الإسلامية منذ القدم.

3) الفلسفة النقدية التي ينبغي لها أن تقدّم في العصر الراهن من شأنها أن تجري في مسلك مغاير لما سلكه المفكر الغربي إيمانويل كانط، أي يمكن الاعتماد عليها في إثبات المعتقدات الدينية عقلياً على ضوء الإقرار بكون النقد العقلي مرآةً تعكس قابليات العقل البشري في تمييز المعتقدات الدينية الحقّة عن تلك المموّهة والمزيّفة، لأنّ العقل في الحقيقة قادرٌ على معرفة الآلهة المزعومة التي جعلها البعض أرباباً تُعبد وتقدّس، ومن ثمّ فهو يمكن عدّه عقبهً مستحكمةً ورادعاً قوياً يحول من دون استغلال بعضهم اسم الله تعالى لتحقيق مآرب خاصّة.

يظهر من جملة المباحث المهمة التي بذل المؤلف جهداً ملموساً في تقديمها أنّ الشيخ مرتضى مطهري انتقد مبادئ الحدائث التي قدّمها إيمانويل كانط للإنسان المعاصر الذي طغت عليه صبغة القرون الوسطى وأعرافها الهزيلة؛ إذ عدّ هذه المبادئ مضماراً يقرّ الإنسان في رحابه بعجزه المعرفي تجاه حقائق الكون فضلاً عن أنها تدعو الى عدم الاكتراث بكلّ أمر حكيم يوصف بالحُسن والخير والكمال والسعادة، إلى جانب تحريضها على استقلال الذات وحرمة النفس. إن هذه الميزات هي التي جعلت الشيخ مطهري ينتقد نظرية كانط الأخلاقية، ويتساءل عن إمكان تحقّق المبادئ التي تضمّنتها.

وفي كل حال، وبصرف النظر عن الكثير مما لم يتوسع المؤلف بشأنه حول نقد الشيخ مطهري الفكر الفلسفي الغربي، فإن هذا الكتاب بشكل مرتكزاً فكرياً وقيمة مرجعية للنخب الإسلامية في إعادة النظر بتفكيرها إزاء فلسفة الحدائث، وعلى التحديد ما قدمه الفيلسوف إيمانويل كانط في هذا الخصوص.

- الكتاب: الحدائث عند كانط في رحاب آراء الشيخ مرتضى مطهري

- تأليف: علي أكبر أحمددي

- ترجمة: أسعد مندي الكعبي

- الناشر: المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية - بيروت.

- الطبعة: الاولى 2017م - 1439هـ.